

## الفصل الثاني

### الاستعمار الأوربي في أفريقيا دوافع الاستعمار الأوربي لأفريقيا

#### المحتويات :

- أ. المقصود بالاستعمار (تعريف).
- ب. أهم الدوافع التي دفعت الأوربيين لاستعمار أفريقيا:
  ١. الدافع الديني.
  ٢. الرق.
  ٣. دوافع استراتيجية.
  ٤. عوامل متصلة بالدول الأوروبية ذاتها.
  ٥. العوامل النفسية وراء الاستعمار.
  ٦. الثورة الصناعية في أوربا وأثرها في دفع عجلة الاستعمار.
  ٧. تكوين المستعمرات السكنية كدافع للاستعمار.
  ٨. دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول الأوروبية.

oboeikandi.com

إذا كان كشف القارة الأفريقية وإلقاء الضوء عما بداخلها يمثل صفحة بيضاء في العلاقات الأفريقية الأوربية - فإن اتجاه الأوربيين للاستعمار والأستحواز على مساحات واسعة من القارة وتسخير الأفارقة وخيرات بلادهم لتحقيق الرفاهية للأوربيين يمثل صفحة سوداء في تاريخ العلاقات الأوربية الأفريقية. والإستعمار ظاهرة قديمة، حتى أننا يمكن أن نقول أن جذورها تضرب في أعماق التاريخ إلى مدى بعيد، وقد شهد العالم القديم قيام إمبراطوريات استعمارية ضخمة كالإمبراطورية الرومانية، وكإمبراطورية الإسكندر المقدوني.

لكن الاستعمار الأوربي في أفريقيا الذي برز بنوع خاص في القرن التاسع عشر تطور في أساليبه ووسائله وأهدافه والنتائج التي ترتبت عليه حتى خيل للبعض إنه ظاهرة جديدة مرتبطة بالقرن التاسع عشر فحسب، ولذا فلا بد من الوصول لتعريف دقيق للاستعمار في شكله الجديد ينطبق على هذه الظاهرة التي برزت في نشاط الدول الأوربية في أفريقيا.

### المقصود بالاستعمار

تعددت التعاريف التي ذكرت للاستعمار في العصر الحديث فالبعض عرفه بأنه يعني سيطرة جماعة على جماعة أخرى.

وعرفه د. كوامي نكروما بأنه سيطرة دولة على دولة أخرى واستخدام هذه الدولة المستعمرة قوتها الصناعية المتفوقة لإخضاع شعب آخر، واستغلاله اقتصادياً.

فالاستعمار من وجهة نظر د. نكروما هو السياسة التي بها ترتبط وتقيد الدولة الأم مستعمراتها وتوجيهها من أجل تحقيق مصالحها الاقتصادية الخاصة<sup>(١)</sup>.

وهذا التعريف وغيره من التعريفات المتعددة التي ذُكرت للاستعمار ليست وافية بحيث تشمل جميع أشكال الاستعمار الحديث ووسائله وأهدافه.

(١) كوامي، إكروما: نحو تحرير المستعمرات (ترجمة عبد العزيز عتيق) ١٩٥٨ - ص ٤٨ .

ولعل تعريف الأستاذ الدكتور (محمد عوض محمد) هو أكثر هذه التعريفات شمولاً فقد عرف الاستعمار بأنه: «العمل أو مجموعة الأعمال التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان في آن واحد»<sup>(١)</sup>.

فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية، وقد تحدث السيطرة على الأرض بشرائها بطرق منها عوامل الضغط. والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس قصد به أن يشمل الإستعمار.

الأعمال التي قامت بها (الشركات) التي تألفت في العصور الحديثة مثل الشركات الإستعمارية الألمانية التي أسسها كارل بيترز (K. Peters)، وشركة الهند الشرقية البريطانية وغيرها من الشركات العديدة التي كثرت في العصر الحديث وقامت بأعمال إستعمارية عنيفة في شرق أفريقيا وكثيراً ما مهدت لحكوماتها لبسط نفوذها على الأماكن التي كانت قد إرتبطت بها هذه الشركات. والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط عادة لا يحدث إلا في بلاد خالية من السكان أو في حكم الخالية من السكان.

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض فيكون ذلك بترك الأرض ومرافقها للسكان الأصليين لإستقلال أراضيهم، وهذا عكس ما حدث في شرق القارة حيث تسلط المستعمرون على الأرض والسكان، والسبب لا يرجع لميزة إمتاز بها مستعمرو الغرب - لكن الأمر يرجع إلى أن أرض شرق أفريقيا المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين بينما أرض أفريقيا الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين الأوربيين فسيطروا على السكان واستخدموهم لاستغلال الأرض.

(١) محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية (القاهرة ١٩٥٧) ص ٣٨ - ٣٩.

وكما حدث أيضاً في القرن الخامس عشر حين قامت الدول الأوروبية بالاستيلاء على مناطق السواحل الأفريقية أقامت فيها الحصون والمراكز التجارية من أجل تجارة الرقيق.

وهذا التعريف كما نرى شامل وعملي يسهل قياس الصور المختلفة التي تقابلنا على أساسه.

والرق من أبشع أنواع الاستعمار فهو استبعاد للإنسان واستغلال له سواء في بلده الأصلي أو نقله عنوة للعمل في بلاد أخرى لتحقيق الرفاهية للمستعمر الغريب، ويختلف هذا بالطبع عن الهجرة الإختبارية.

وقد يتبادر للذهن سؤال هام هو هل يدخل ضمن الاستعمار النفوذ الاقتصادي أو الثقافي؟.

والسليم أن المشروعات الثقافية والاقتصادية إذا لم تؤد إلى بسط النفوذ السياسي أو تكون نتيجة نفوذ سياسي فهي ليست من الاستعمار في شيء.

فاستخدام رؤوس الأموال الأجنبية أو إنشاء معاهد ثقافية أجنبية في بعض البلاد إن لم تكن نتيجة تسلط أجنبي أو يترتب عليها هذا التسلط أى تكون ذريعة للتسلط فإنها لا تدخل تحت تعريف الاستعمار.

ولكن إذا أتخذت البعثات العلمية أو الدينية كما حدث في أحوال كثيرة ذريعة تتدرع بها الدول لبسط سلطانها السياسي على قطر أو كتمهيد لاحتلاله فهذا بالطبع عمل استعماري.

وواضح أن الفرق والحد بين الاثنين الاستعمار والاستثمار يتمثل في خيط رفيع دقيق والأمر يحتاج ليقظة وتدقيق للتفريق بين الاثنين.

### دوافع الاستعمار الأوربي لأفريقيا وتطورها

مع أن الاستعمار الأوروي الحديث لأفريقيا بدأ في القرن الخامس عشر - إلا أن الأوروبيين اكتفوا في القرون الأولى من استعمارهم باتخاذ نقط ساحلية

أو الاستقرار فى بعض الجزر القريبة من الساحل - لكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقيل نهاية هذا القرن على وجه الخصوص ظهرت دوافع جديدة أدت إلى النهى الاستعمارى فأخذت الدول الأوروبية تتوغل فى داخل أفريقيا وأراد بعض ساسة أوربا إيجاد أسس تتحرك فى إطارها هذه الدول وهى تعمل لمد نفوذها لمناطق جديدة فى القارة .

### وأهم الدوافع التى دفعت الأوربيين لاستعمار أفريقيا:

#### ١. الدافع الدينى:

انتهى الصراع بين العرب والإمارات المسيحية فى شبه جزيرة إيبيريا بخروج العرب نهائياً من أسبانيا فى عام ١٤٩٢ فأصبحت الأندلس بحق - كما عبر عنها بعض الكتاب العرب (فردوس العرب المفقود) - لكن البرتغال استطاعت أن تتخلص من الوجود العربى وأن تقيم مملكة مستقلة قبل الأسبان بما يقرب من قرنين .

وحمل البرتغال لواء حركة دينية جديدة يعتبرها بعض المؤرخين امتداداً للحركة الصليبية وذلك بهدف تعقب القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحى - الذى ذاع صيته فى أوربا، وإن كانت بلاده لم تكن معروفة على وجه الدقة للاشتراك فى معركة تطويق للدول الإسلامية ودولة المماليك بالذات والقضاء على مصر وقوتها التى تتمثل فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة .

ولا شك فى أن الحملات التى قام بها الأمير هنرى الذى اشتهر باسم هنرى الملاح (Henry the Navigator) ورحلات غيره من الرحالة البرتغال كانت كلها تهدف إلى توجيه ضربة قوية للقوى العربية بالقضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق، وبذا تستنزف هذه الثروة التى كانت تتدفق عليهم وتضعف قدرتهم العسكرية بالتالى .

والدليل على أن الدافع الدينى وراء الحركات الاستعمارية فى ذلك الوقت أن

البابوية باركت هذه الحركات وبادرت بالتدخل لفض النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال وأسبانيا<sup>(١)</sup>.

وقد أدركت القوى الإسلامية الهدف من وراء هذا النشاط الاستعماري ولذا تصدت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغال ونشاطهم في البحار الشرقية - لكن هزمت الأساطيل المصرية في موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ واستأنف العثمانيون الذين ورثوا السلطة في مصر والشام والحجاز من المماليك - القتال ضد البرتغال وحلفائهم.

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف اشتراك المدن الإيطالية المسيحية إلى جانب المماليك في حربهم ضد البرتغال فقد كانت أساطيل هذه المدن هي التي تقوم بنقل بضائع الشرق من موانئ الشام ومصر إلى أوروبا فمصالحها الاقتصادية هي التي حتمت عليها هذا الاتجاه.

ويرتبط بالعامل الديني - الحركات الدينية التي شاهدها أوروبا إثر النهضة الأوربية، فقد أدت حركة الإصلاح الديني والدعوة لتخليص المسيحية من الشوائب التي ارتبطت بالكنيسة ورجال الدين في العصور السالفة - إلى تحطيم الوحدة الدينية لأوروبا، وظهرت مذاهب دينية كالبروتستانتية، وقامت نتيجة لذلك مذاهب دينية وحروب في أوروبا أدت لهجرة الكثيرين من بلادهم - لكن لم تلبث موجة الصراع والنشاط الديني أن اتجهت إلى ناحية التبشير بالمسيحية بين القبائل في المناطق التي كانت تسود فيها الوثنية في المستعمرات الجديدة.

واتجه نشاط الجمعيات التبشيرية بصفة خاصة إلى أفريقيا بعد الكشف الجغرافية التي بدأت تلقى الأضواء على داخل القارة فكان المبشرون يسرون عادة في ركاب المستكشفين، وإن كانت بعض البعثات التبشيرية قد سبقت أحياناً في كشف النقاب عن مناطق لم تكن معروفة للأوروبيين.

(١) فض النزاع ١٤٩٩م الدولتين بمعاهدة تورديسيلاس (Tordesillas) التي عقدت بين الدولتين في عام

ونذكر في هذا المجال جهود لفينجستون (Livingstone) فقد انضم في عام ١٨٣٨ إلى جمعية لندن التبشيرية، وقد وجه نظره للعمل في جنوب أفريقيا الدكتور موفات (Moffat)، وقد تحدثنا عن نشاطه في كشف نهر الزمبيزي وفي إثارة الرأي العام العالمي ضد تجارة الرقيق بعد أن شاهد بعينه ما يقاسيه الأرقاء من الآلام، وقد دفعت رحلات لفينجستون ببعثات دينية أخرى من بريطانيا واسكتلندا.

وفي شرق أفريقيا كان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية نشاطها الملحوظ، ونذكر بالذات في هذا المجال جهود الأب سايتو (Sapeto) وهو من أشهر رجال التبشير الإيطاليين، وقد دخل فيما بعد في خدمة شركة روباتينو الإيطالية للملاحة وهي الشركة التي لعبت الدور الأول في الاستعمار الإيطالي في شرق القارة.

على أن الجمعيات التبشيرية التي بدأت نشاطها بالعمل على نشر المسيحية والحضارة بين الأفارقة انغمست في ميدان الاستعمار فقد أصبح الهدف الديني يتخذ وسيلة لتبرير الاستعمار، فكان كثيرون من رجال الدين دعاة للاستعمار، واشتهرت منهم أسماء متعددة في هذا المجال نذكر منهم على سبيل المثال الكاردينال الفرنسي لافيجيرى (Lavigerie).

وقد كثر في كتابات هؤلاء وأقوالهم الحديث عن النظريات الإنسانية والأبوية ودور الرجل الأبيض الذي عبّر عنه بالأب الأبيض (White Father) أو الأخ الأكبر (Older Brother) - لكن أثبتت الأيام أن الأمر لا يخرج عن كونه قناعاً يُغطى به الاستعمار وجهه القبيح. وفي كثير من الأحيان حدث أن انعكست النظرية المعروفة فكانت البعثات التبشيرية ممهدة للاستعمار وليس العكس (The Flag Followed the Missionary)<sup>(١)</sup>.

وقد أشار لينين إلى ذلك فذكر إن تأثير الدين في السيطرة على الشعوب

تأثير مسرحي، فالمسرح يبدأ أول ما يبدأ بالإرساليات الدينية ثم يتبعها علماء الأجناس البشرية والتجار وأصحاب الامتيازات ورجال الإدارة، فبينما تتوسل الإرساليات الدينية إلى الوطنيين أبناء المستعمرات بأن يكتزوا كنوزهم في السماء حيث لا يُفسد سوس ولا يأكل صدأ، نرى التجار وأصحاب الامتيازات ورجال الإدارة يحصلون على معادن بلادهم وعلى مصادر الثروة الطبيعية في أرضهم ويقضون على فنونهم وحرفهم وصناعاتهم الوطنية.

لكن من الإنصاف أيضاً أن نذكر لهذه البعثات التبشيرية جهودها في مجال التعليم ومجال العلاج بالذات.

## ٢. الرق:

كان الهدف من حركة الكشوف الأولى الوصول إلى الشرق بغرض الحصول على بضائع الشرق المطلوبة في أوروبا، ولذا اهتمت البرتغال التي بدأت صفحة الاستعمار الأوربي في العصر الحديث بإنشاء مراكز تجارية أو حصون عسكرية على الساحل الغربي لأفريقيا أو بالقرب منه حتى أطلق على الاستعمار البرتغالي في ذلك الوقت تعبير (استعمار البهار) إشارة للهدف منه - لكن الأمر تحول بسرعة فأصبحت السلعة المتداولة هي الإنسان الأفريقي (العاج الأسود) بالإضافة إلى بضائع أفريقية أخرى كالذهب والصمغ والعاج.

ورغم أن البداية التي افترحت بها البرتغال صفقة الرق في العصر الحديث تبدو في مظهرها إنسانية متصلة بالدافع الديني إذ ادعت البرتغال أن هدفها هو إبعاد الأفارقة الوثنيين عن أجوائهم الأفريقية لتلقينهم مبادئ المسيحية ليعودوا إلى بلادهم ليكونوا رسلاً لنشرها - فلا شك في أن هذا لا ينفي أن البرتغال هم مؤسسو مدرسة الرق بكل مساوئه في العصر الحديث فقد تطور الأمر حتى أصبح الساحل الغربي لأفريقيا مورداً هاماً للأيدي العاملة التي إحتاجها الغرب لتعمير العالم الجديد<sup>(١)</sup>.

(١) جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير (القاهرة ١٩٦٨) ص ٧٠.

وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال هي التي تحتكر تجارة الرقيق وتقوم بتمويل أملاكها والأملاك الأسبانية وغيرها بحاجتها من الرقيق الأفريقي وكانت في لشبونة سوق كبيرة للرقيق تمد العالم الجديد بحاجته منهم.

ولما إزدادت الحاجة للرقيق الأفريقي - اتجه البرتغال لتسليح أتباعهم ممن أطلق عليهم لفظ (الجلابة) بالأسلحة النارية لمضاعفة قدرتهم على القنص فقد كان البرتغال يفضلون عدم المخاطرة بأنفسهم بالتوغل للداخل - طالما أنهم يستطيعون عن طرق أتباعهم المسلحين الحصول على حاجتهم من الرقيق وهم مطمئنون في مراكزهم الساحلية ولذا أطلق بعض المؤرخين على القرن السادس عشر في أفريقيا تعبير (عصر البنادق) فقد انتشر استخدام البنادق في القارة بعد أن كانت الأسلحة البدائية كالرمح والسهم هي الأسلحة التي عرفها الأفريقي قبل ذلك، وهكذا أصبح الرقيق أغلى سلعة إكتشفها القوى الاستعمارية في أفريقيا.

ومع ذلك لم تستطع الجهود التي بذلتها البرتغال أن تسد طلبات الدول الأوروبية الأخرى المتزايدة للرقيق فدخل الهولنديون والفرنسيون والإنجليز والدانمارك وغيرهم من الأوربيين هذا الميدان إلى جانب البرتغال ليسدوا الطلبات المتزايدة للأيدى العاملة الرخيصة للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا.

واتجهت هذه الدول لبيسط سيطرتها على مناطق معينة من الساحل الأفريقي أو في الداخل لتضمن حصولها على حاجتها من الرقيق - وتشكلت شركات خاصة لنقل الرقيق الأفريقي وما يرتبط بهذا العمل من نشاطات أخرى.

وقد بلغت أرباح هذه التجارة - تجارة الرقيق - حداً خيالياً فمثلاً كانت سفن الرقيق البريطانية تقوم في الجولة الواحدة برحلة مثلثة فتنقل الفائض من المصنوعات الإنجليزية لغرب أفريقيا حيث تستبدلها بشحنات آدمية تعبر بها المحيط الأطلسي فتفرغها في مناطق العمل بأمريكا ثم تعود بالتالي لبريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغيرها من محاصيل هذه الأقاليم، وفي كل مرحلة من هذه المراحل تحقق بالطبع أرباحاً طائلة، وكان هذا سر الثراء

الفاحش الذى بدت مظاهره فى بعض المدن والموانى الأوربية «فإذا كان الهولنديون يرددون فى تراثهم أن مدينتهم العظيمة (امستردام) قد بُنيت على عظام الرنجة التى اشتهروا بتسويقها ليس بعيداً عن الصواب أن تقول بالمثل إن لشبونة فى البرتغال وليفربول فى إنجلترا قد بُنيت على عظام الرقيق الأسود وبدمائه»<sup>(١)</sup>.

وقد حاول بعض الباحثين أن يصل إلى إحصاء تقريبي لعدد الرقيق الذين وصلوا للمستعمرات الأوروبية منذ بدأت حركة الاسترقاق فى القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر - لكن الأرقام اختلفت ولم تستطع أن تصل لأعداد تستند على أدلة قوية، فقد قُدر ما وصل المستعمرات الأوربية كلها فى قرن واحد من ١٦٨٠ إلى ١٧٨٠م بحوالى ٤٠ مليون أفريقى - وإذا صح هذا التقدير وإذا وضعنا فى الاعتبار أن النظام الذى أُتبِع فى عمليات القنص والشحن والترحيل ترتب عليه أن ما كان يصل حياً لا يُمثل إلا نصف ما فقدته القارة فهذا يعنى أن القارة استنزفت فى قرن واحد ما يقرب من ٨٠ مليون من أبنائها<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد أطلق الأوربيون على السواحل الأفريقية بل وعلى بعض المناطق التى بسطوا نفوذهم عليها فى القارة أسماء تتطابق مع نشاطهم فيها مثل ساحل الذهب وساحل العبيد، وساحل العاج، وساحل الزنج. هكذا ظل الرق مستمراً والقارة الأفريقية تتعرض لحمولات منتظمة من الاستنزاف البشرى والحكومات الأوروبية والشركات وتجار الأسلحة يشجعون استمرار هذه التجارة التى ثبت أنها أكبر أنواع التجارة ربحاً.

لكن من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بدأت ترتفع الصيحات مطالبة بوضع حد لهذه التجارة البشعة، وظهرت حركات تعارض

(١) جمال حمدان: نفس المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) تشرين، هاريسون: الاستعمار الحديث (الأصل ١٩٥١) الترجمة العربية ص ٣٠ .

الرق والإتجار فيه (Anti Slavery Movement) ، كما إنبرى عدد من رجال الدين ومن الجماعات التي عُرفت باسم أنصار الإنسانية (Humanitarians) تحاول أن تدفع الحكومات والبرلمانات لسن القوانين باعتبار هذه التجارة محرمة .

ولقيت هذه الحركات معارضة من العديد من المتشغين بهذه التجارة فقد وصل الحد مثلاً إلى أن اللورد دارموت (Darmot) وزير المستعمرات البريطانية يرد على الداعين لوضع حد لهذه التجارة بقوله: «إننا لا نسمح بأى حال بعرقلة هذا النشاط التجارى الذى ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا» .

وبرز فى الحركة الداعية لوضع حد لهذه التجارة أشخاص من أمثال وليم ويلبرفورس (William Wilberforce) عضو البرلمان الإنجليزى .

وقد توجهت جهود هؤلاء بصدور القوانين بمنع هذه التجارة وفرض عقوبات على من يعمل بها - ولم يتم هذا الأمر فى كل الدول الأوربية فى وقت واحد، كما أن الأمر تدرج من تحريم الاتجار فى الرقيق إلى إصدار القوانين بتحرير العبيد السابقين .

على أنه يترتب على هذه الحركة تحرير عدد كبير من الرقيق الموجودين خارج القارة فى إنجلترا وأمريكا وغيرها وأبدى بعضهم رغبته فى العودة إلى القارة الأم التى سبق أن عاش فيها أبائهم وأجدادهم - وأدى هذا لتأسيس شركات تعمل لإعادة توطين هؤلاء الأفارقة فى وطنهم الأصلي، كما أدى هذا لاتخاذ مناطق معينة على الساحل الأفريقى لإقامة مستوطنات لهؤلاء الأفارقة العائدين - فقامت مثلاً جمهورية ليبيريا المستقلة لتكون أرضاً للزواج الأمريكيين وبالمثل سيراليون للزواج البريطانيين .

على أن الدول الاستعمارية اتخذت حتى من هذه الخطوة الإنسانية ذريعة لتحقيق أطماعها الاستعمارية باسم ضمان تنفيذ قوانين تحرير الرقيق، فقد تدخلت إنجلترا فى شئون زنجبار بحجة التأكد من أن السفن فى موانئها لا تحمل رقيقاً .

## ٣. دوافع استراتيجية؛

جعل التطاحن بين الدول الاستعمارية على مناطق معينة في القارة مركزاً ممتازاً بالنسبة لموقعها وتحكمها في الملاحة البحرية أو غيرها، ودفع ذلك الدول صاحبة المصلحة للإسراع باستعمارها، فمثلاً موقع الجزائر على البحر المتوسط في مواجهة سواحل فرنسا الجنوبية كان من الدوافع وراء الاستعمار الفرنسي لها في عام ١٨٣٠، ويقال مثل هذا عن أماكن أخرى في شرق القارة وغربها فموقع مصر الهام على البحرين المتوسط والأحمر والأهمية التي أصبحت لها بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كان وراء الاستعمار البريطاني لمصر وتمسك بريطانيا بالنفوذ في منطقة القناة.

كذلك أثر موقع المغرب الأقصى (طنجة) بالذات وتحكمها في المدخل الغربي للبحر المتوسط في موقف الدول الاستعمارية من المغرب ويقال مثل ذلك على منطقة رأس الرجاء الصالح (كيب تاون) وأهميتها في الملاحة بين غرب القارة وشرقها، كذلك منطقة باب المنذب والمناطق التي تقع خلفها على الساحل الأفريقي الشرقي وما نُطلق عليه اليوم (منطقة القرن الأفريقي) كان ولا يزال موقعها سبباً في الصراع الاستعماري عليها.

## ٤. عوامل متصلة بالدول الأوروبية ذاتها وحالتها الداخلية؛

كانت الأوضاع الداخلية في بعض الدول الأوروبية من الدوافع التي دفعتها لتخرج لميدان الاستعمار نذكر على سبيل المثال أن حالة القلق الداخلي التي كان يُعاني منها الشعب الفرنسي منذ عام ١٨١٥ . جعلت الحكومة تفكر في تحويل نظر الشعب عن المشاغل والاهتمامات الداخلية - فالشعب الفرنسي كان لا يزال في حالة السُكْر بمجد العظمة الأمبراطورية وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الحكومة الفرنسية للتفكير في غزو الجزائر، وقد صرح رئيس الوزراء بوليناك (Poliynac) في مجلس الوزراء عند مناقشة موضوع حملة الجزائر بأن هذه الحملة ستجعل أنظار الشعب الفرنسي تتجه إلى الخارج، وأن النصر في هذه

الحملة سيساعد على تقوية الملكية، وسيكون فيه الرد العملى على الذين اتهموا الملكية منذ عودتها فى عام ١٨١٥ بإتباع سياسة السلم والاستسلام.

### ٥. العوامل النفسية وراء الاستعمار الأوربى الحديث:

الدول كالأفراد يتحكم فيها ما يتحكم فى الأفراد من ظاهرات نفسية كشهوة الامتلاك، وحب العظمة والظهور والمباهاة والغيرة، ومحاكاة الغير - وأدى هذا للتنافس الشديد بين أبناء أوروبا ودولها وحكوماتها<sup>(١)</sup>.

وكانت أفريقيا القارة المكتشفة حديثاً المجال القسيح للتنفيس عن هذه الصراعات النفسية كالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثورات الداخلية والضغط من الأفراد والجماعات على الحكومات لمجاراة الدول الأخرى فى ميدان الاستعمار، كل هذا كان وراء خروج الأوربيين للاستعمار.

وقد كان الكتاب الإنجليز فى القرن الماضى يتحدثون عن أمباطوريتهم التى لا تغيب عنها الشمس ويتضح ذلك أيضاً فى ضغط الرأى العام الألمانى على الزعيم الألمانى بسمارك ليخرج بألمانيا إلى ميدان الاستعمار أسوة بالمتلترافرنسا وغيرهما من الدول الأوربية.

### ٦. الثورة الصناعية فى أوروبا:

أوجدت الثورة الصناعية فى أوروبا حوافز جديدة دفعت عجلة الاستعمار الأوربى فهذه الثورة أدت للإنتاج الكمى (Mass Production) الذى يترتب عليه التخفيض فى تكلفة الإنتاج، وذلك بدلاً لسند الحاجات الضرورية للمواطنين فحسب، فأصبحت الحاجة ماسة للمواد الخام ثم لأسواق لتصريف الفائض من الإنتاج.

ووجدت الدول الصناعية فى أفريقيا مجالاً طيباً حيث تتوافر المواد الخام الزراعية والمعدنية بالإضافة إلى السوق الواسعة لتصريف الفائض من منتجاتها من الإنتاج وذلك بعكس الوضع فى أوروبا.

(١) سليمان حزين: صفحات من تاريخ الاستعمار (١٩٦١) ص ٨١.

وقد برز هذا العامل الاقتصادي كدافع هام وراء الاستعمار (Economic Imperialism) - حين انتقلت مقاليد الأمور في الدول الكبرى الصناعية إلى طبقة التجار والرأسماليين وأصبحت الأغراض التجارية والصناعية بالذات تتحكم في سياسات هذه الدول وسعت الرأسمالية الأوروبية إلى البحث عن مجالات أخرى لاستثمار رؤوس أموالها - وكان المجال أمامها واسعاً في القارة الأفريقية بالذات.

وترتب على هذا تأسيس الشركات التجارية الكبرى التي ذاع صيتها في ميدان الاستعمار في أفريقيا، فقد اكتشفت هذه الشركات في أفريقيا مستودعاً كبيراً للمواد الخام من منتجات الكساء الخضري إلى الثروة المعدنية - فاندفعت لاستنزاف موارد القارة حتى كادت تنضب مواردها النباتية والحيوانية والمعدنية فقد كان قانون المستعمرين هو امتصاص زبد الإقليم (Skim The Cream)، وأصبح أفضل تشبيه للاستعمار بأنه مضخة ماصة في المستعمرات كاسبة في الدول الاستعمارية.

وكانت المستعمرات في نظر الدول الاستعمارية لا تخرج عن كونها مصدراً للمواد الخام وللعمال ذوي الأجور الرخيصة بالإضافة إلى مستودع للفائض من المصنوعات غير الجيدة بأسعار عالية، وأصبح الأوروبيون ينادون «بأن العقل الأبيض (White Brain) والعسل الأسود (Black Brawn) يجب أن يتعاوناً لخير الطرفين»<sup>(١)</sup>.

وتاريخ هذه الشركات الأوروبية الاستعمارية ودورها في القارة الأفريقية جدير بالدراسة، فقد اندفعت هذه الشركات لاستغلال القارة مستندة على ما أمدها به العلم من وسائل وإمكانات فأصبحت المواصلات ميسرة، كما أخضعت أمراض المناطق الحارة لسلطان العلم والطب وأصبح الوصول إلى داخل القارة ممكناً ومأموناً إلى حد كبير.

(١) جمال حمدان: مرجع سابق ص ١٤٧، ١٤٨.

وكانت الشركات كثيرًا ما تبدأ العمل في القارة ثم لا تلبث أن تترك المجال للحكومات مستذرة بسبب أو آخر - ولذا فإن القاعدة القديمة القائلة أن الاستعمار يتبع التجارة (The Trade Follows The Flag) انقلبت فأصبح الأقرب للصواب أن يقال (The flag Follows the Trade)<sup>(١)</sup>.

والأمثلة على ذلك كثيرة فالاستعمار البلجيكي للكنغو كانت بدايته الشركة التي أسسها الملك ليوبولد الثاني (Leobold II) ملك بلجيكا برأسمال مليون فرنك لاستغلال الكونغو، كذلك فإن الشركات الاستعمارية الألمانية كشركة كارل بيترز (K. Peters) التي بدأت نشاطها في شرق أفريقيا، وكانت شركة سيسيل جسون رودس (Cecil . J. Rhodes) التي عُرفت باسم شركة جنوب أفريقيا البريطانية والتي صدر مرسوم بتأسيسها في عام ١٨٨٩ بدعوى استغلال مناجم الذهب في جنوب أفريقيا وروديسيا والمناطق المحيطة بها - الأساس الذي قام عليه الاستعمار البريطاني في هذه الجهات، وكانت شركة روباتينيو الإيطالية (Robbatinio) مهيأة لاستعمار الإيطالي لميناء عصب والمستعمرة إريتريا.

ولكى تحقق الدول الاستعمارية أهدافها رسمت سياستها على أسس أهمها:

١ - التحكم في أسعار المواد الخام بالمستعمرات بحيث تصل لأماكن التصنيع في الدول الكبرى بأقل سعر ممكن.

٢ - أن تبقى المستعمرة دائماً بلاداً غير صناعية.

٣ - ألا يكتسب أبناء المستعمرة الخبرة الفنية والمعرفة التي تعينهم على تنمية صناعاتهم المحلية.

٤ - العمل على أن تكون الأيدي العاملة الوطنية دائماً متوفرة وعلى استعداد لتلبية طلبات الدول المستعمرة.

(١) زاهر رياض: الشركات التجارية وأثرها في استعمار أفريقيا (مجلة نهضة أفريقيا عدد ٢٣ - أكتوبر ١٩٥٩).

٥ - الاحتفاظ بمستوى أجور العمال الوطنيين المنخفضة في المستعمرات .  
 ٦ - وضع قيود على المستعمرات بحيث لا تتجر مع الدول الأخرى .  
 وقد عبّر عن هذه الأهداف بصراحة رئيس الحكومة الفرنسية جولس فيري (Jules Ferry) عام ١٨٨٥ في تصريح له في البرلمان الفرنسي، وقد عبرت عن ذلك جريدة (Christian Science Metor) فذكرت «إن رأس المال الأمريكي اكتشف في أفريقيا قارة من ١٥٠ مليون مستهلك ومصادر لا تنضب من المواد الخام».

وهذا يفسر لنا السبب في أن الدول الأفريقية حين استقلت وجدت نفسها عاجزة عن استغلال مواردها الطبيعية فقد كانت بحاجة للخبرة الفنية والتدريب وإلى غير ذلك من المقومات الأساسية لقيام ونجاح الصناعات الوطنية وهو ما حرص الاستعمار على عدم إتاحة الفرصة لأبناء المستعمرات لاكتسابه .

### ٧. تكوين المستعمرات السكنية كدافع للاستعمار؛

تذرعت بعض الدول الأوروبية الكبرى كفرنسا وألمانيا بأن الاستعمار ضرورة فرضتها ظروفها لتكون المستعمرات كمصرف للزائد من سكانها الذين ضاقت بهم رقعة بلادهم .

فالكتاب الفرنسيون والألمان أخذوا يتحدثون عن نوعين من المستعمرات:

أ - مستعمرات سكنية بغرض الإقامة الدائمة بها .

ب - مستعمرات استغلالية للأغراض الاستغلالية التجارية .

وقد دفعت بعض النظم الاجتماعية الجديدة في المجتمع الصناعي الأوروبي بالإضافة إلى الصراعات السياسية والدينية في أوروبا ببعض إلى الهجرة من أوطانهم .

وقد وجدت بعض الدول الأوروبية أنه لكي لا تفقد زهرة شبابها الذين كانوا يهاجرون للخارج ويقطعون صلاتهم بأوطانهم أن تحل هذه المشكلة بأن

توجد مستعمرات سكنية ترتبط بالوطن الأم يهاجر إليها أمثال هؤلاء الشبان وبذلك تبقى صلتهم بالوطن الأم مستمرة.

ولكن ثبت أن إدعاءات هذه الدول بحاجتها الماسة للمستعمرات السكنية ليست صحيحة بدليل أن هذه الدول لم تجد من أبنائها من يرغب بمحض إرادته في أن يهاجر وأضطرت الحكومات إلى إرسال المجرمين والمحكوم عليهم في قضايا جنائية وغيرهم من غير المرغوب فيهم للمستعمرات.

هذا على أن النهضة الصناعية الأوروبية امتصت في الحقيقة معظم الأيدي العاملة في هذه البلاد.

#### ٨. دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول المستعمرة:

ادعى بعض الكتاب السياسيين الفرنسيين والإنجليز وغيرهم بأن دولهم لها رسالة في نشر المدنية في الجهات غير المتحضرة من القارة الأفريقية، فقد كان رودس مثلاً يردد القول بأن خير الإنسانية يتحقق بأن يمد الجنس الأنجلو سكوني نفوذه على أكبر مساحة ممكنة<sup>(١)</sup>.

لكن ظهر أيضاً من الكتاب الأوروبيين أنفسهم من وجد لديه الشجاعة الكافية ليسخر من هذا الإدعاء. ففي عام ١٨٨٥ كتب بعض الكتاب الفرنسيين مقالات يسخرون فيها من سياسة بلادهم الاستعمارية ومن إدعاءات رجال السياسة عن المهمة الإنسانية التي تقوم بها فرنسا في أفريقيا، وذكروا أن مهمة فرنسا في بلد كالجائز انحصرت في تعليم العرب هناك شرب الخمر الرديئة وطائفة أخرى من الرذائل لم يكونوا يعرفونها.

على أن رجال السياسة الاستعماريين أنفسهم لم يجدوا بعد ذلك ما يدعوهم لأن يسدلوا على أعمالهم الاستعمارية هذا الستار الإنساني فمثلاً نجد لوجارد (Lugard) وهو من الاستعماريين البريطانيين يصرح سنة ١٨٩٣ بأن الاستعمار

الإنجليزية في أفريقيا تدعو له مصالحي إنجلترا الحيوية الخاصة بمواجهة الزيادة في منتجاتها، ففي أفريقيا مجال طيب لتوزيع الفائض من هذه المنتجات ولتنمية التجارة الإنجليزية.

وبالمثل في فرنسا نجد الكاتب الفرنسي دارسي (Darcy) يذكر سنة ١٩٠٤ «إن توسع الدولة خارج حدودها أصبح شرطاً أساسياً لقيام ودوام هذه الدولة، ففي عصرنا هذا من لا يتقدم ويسبق يتأخر، ومن يتأخر لا بد من أن يغرقه الطوفان».

وفي عام ١٩٢٣ صرح وزير المستعمرات الفرنسي ألبرت سرو (Albert Sarraute) بأن الاستعمار لم يكن إلا عملاً من أعمال القوة دعت إليه المنافسة المتزايدة بين الأفراد والجماعات - وهكذا لم تصبح هناك ضرورة للبحث عن أعذار شكلية تتذرع بها الدول الاستعمارية لتبرر عملياتها الاستعمارية<sup>(١)</sup>.

وسنحاول أن نتبع الدور الذي لعبته كل دولة استعمارية أوروبية في القارة الأفريقية، وسياسة هذه الدولة، ووضع الأفارقة في ظل هذا الاستعمار وموقفهم من المتسمرين.

\*\*\*

(١) نكروما: مرجع سابق، ص ٥٠.

## المراجع

نورد هنا بعض المراجع لمن يريد المزيد من الدراسة (عن الأستاذ زدرافه) :

### أولاً، المراجع العربية:

- ١ - كوامي، انكروما: نحو تحرير المستعمرات (ترجمة عبد العزيز عتيق) (١٩٨٥).
- ٢ - تشرش، و«ج» هاريسون: الاستعمار الحديث (الأصل ١٩٥١).
- (ترجمة دولت أحمد صادق: ومراجعة محمد السيد غلاب).
- ٣ - سليمان، حزين: صفحات من تاريخ الاستعمار (د. ت).
- ٤ - جمال، حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير (القاهرة ١٩٦٨).
- ٥ - زاهر، رياض: استعمار أفريقية (القاهرة ١٩٦٥).
- ٦ - عودة عبد الملك: السياسة والحكم في أفريقية (القاهرة ١٩٥٩).
- ٧ - محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية (القاهرة ١٩٥٣).

### ثانياً، المراجع الأجنبية:

- 1 - Bartlett, V. : Struggle for Africa (1953).
- 2 - Gunther, J. : Inside Africa (1953).
- 3 - Hertslet; E. : The Map of Africa by Treaty (3 Vols. London 1909).
- 4 - Johnston, Sir H. H.: A History of Co Lonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913).
- 5 - Johnston, Sir H. H. : The Opening up of Africa (London 1928).
- 6 - Keltie, J. Scott: The Partition of Africa (London 1895).
- 7 - Lockhart and Woodhouse.. Cecil Rhodes (N. Y. 1963).
- 8 - Lucas, Charles: The Partition of Africa (1922).
- 9 - Macmillan, W. : Africa Emergent (London 1949).